Vol. 4, N°16, pp. 145– 167, DECEMBRE 2025
Copy©right 2024 / licensed under CC BY 4.0
Author(s) retain the copyright of this article
ISSN : 1987-1465
DOI : https://doi.org/10.62197/YKIY3470
Indexation : Copernicus, CrossRef, Mir@bel, Sudoc, ASCI, Zenodo
Email : RevueKurukanFuga2021@gmail.com
Site : https://revue-kurukanfuga.net

La Revue Africaine des Lettres, des Sciences Humaines et Sociales
KURUKAN FUGA

العلاقة بين المريد والشيخ في مالي

La relation entre le mourid et le cheikh au Mali

د/ أحمدو تال ديالو، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة، باماكو، مالي

Dr Ahmadou Tall Diallo

talldiallo@yahoo.fr

الملخص: تتناول المقالة مفهوم **المريد** في التصوف الإسلامي عموما، وفي **مالي** على وجه الخصوص، وتعرض تطور الظاهرة، وأنواع المريدين، وطبيعة علاقتهم بالشيخ، وما ترتب عليها من ممارسات اجتماعية ودينية، حيث إن المقالة تقدم صورة شاملة لتاريخ المريدية في مالي، وكيف تحوّلت من تربية روحية أصيلة إلى ظاهرة اجتماعية معقّدة ومشحونة بالاستغلال أحيانًا، بسبب الممارسات غير المنضبطة في بعض الزوايا. كما أبرزت أهمية إعادة تقييم العلاقة بين الشيخ والمريد لضمان أن تبقى ضمن حدود الشرع والتزكية الحقيقية. ليصل إلى نقطة مهمة مفادها أن الطاعة بين المريد والشيخ تكون مطلقة في مجال المعاملات، في حين أنها تكون مقيدة بالاجتهاد في أكثر من مسألة كلما تعلق الأمر بمجال العبادات، مثلما هو الحال لدى الطريقة الحموية في نيورو بمالي.
الكلمات المفتاحية: المريد، الشيخ، الطريقة الصوفية، المريدية، الزاوية، الطاعة، التسول الديني، التربية الصوفية، الحموية.

****

Résumé : L'article traite du concept de mouride dans le soufisme islamique en général, et au Mali en particulier. Il présente l'évolution de ce phénomène, les types de mourides, ainsi que la nature de leur relation avec le cheikh et les pratiques sociales et religieuses qui en découlent. L'article offre ainsi une vue d'ensemble de l'histoire du mouridisme au Mali et montre comment celui-ci est passé d'une éducation spirituelle authentique à un phénomène social complexe, parfois chargé d'abus, en raison de pratiques non encadrées dans certaines Zawiya. Il met également en évidence l'importance de réévaluer la relation entre le cheikh et le mouride afin qu'elle demeure dans les limites de la loi religieuse et de la véritable purification spirituelle. L'article aboutit à un point essentiel : l'obéissance du mouride envers son cheikh est absolue dans le domaine des transactions et des affaires de la vie courante, tandis qu'elle devient conditionnée par l'effort d'interprétation dans plusieurs questions dès lors qu'il s'agit du domaine des actes cultuels, comme c'est le cas dans la ṭarîqa ḥamawiyya à Nioro, au Mali.
Mot-clé : le Mourid, Le Cheick, l'Ordre soufi, Mouridisme, Zawiya, l'Obéissance, Mendicité religieuse, l'Education Soufi, Hamallisme.

مقدمة
تنتشر الطرق الصوفية في مالي بشكل واسع، مثل التيجانية والقادرية، وتتخذ من الزوايا مقرا لها، وتكون تلك الزوايا عادة جزءا من دار شيخ الطريقة، حيث يجتمع فيها المريد مع الشيخ للصلاة والذكر والأوراد اليومية. ومن هنا تظهر العلاقة بين المريد وشيخه.
وعلى الرغم من أنّ المريدية في مالي نشأت بوصفها منظومة تربوية وروحية تهدف إلى تزكية النفس وتكوين المتعلّم في إطار أخلاقي وديني، فإنّ تطوّرها التاريخي والاجتماعي أدى إلى ظهور ممارسات جديدة أثارت تساؤلات وانتقادات، خصوصًا ما يتعلق بطبيعة العلاقة بين الشيخ والمريد، وحدود الطاعة، وانتشار التسوّل والاستغلال في بعض الزوايا. ومن هنا تبرز **الإشكالية** الرئيسة:

كيف تطوّرت ظاهرة المريدية في مالي من إطار تربوي وروحي منضبط إلى منظومة اجتماعية مختلطة تجمع بين التربية والممارسات غير المنظّمة، وما أثر هذا التحوّل على علاقة الشيخ بالمريد وعلى الواقع الديني والاجتماعي في البلاد؟

وتكمن **أهمية** هذا البحث في كونه يسلّط الضوء على إحدى أبرز الظواهر الدينية والاجتماعية في مالي، وهي **المريدية**، والتي لعبت دورًا محوريًا في تشكيل الوعي الديني والبنية الروحية لمجتمع مالي عبر قرون. وتزداد أهمية الدراسة في ضوء التحوّلات التي شهدتها هذه الظاهرة بين الماضي والحاضر، وما نتج عنها من إشكالات تتعلق بالتربية الدينية، وحدود الطاعة، وانتشار بعض الممارسات المؤرقة، التي تعارض جوهر التصوف الصحيح.

و**يهدف** هذا البحث إلى تحقيق جملة من المقاصد العلمية والمعرفية، من أبرزها:

1. تحديد مفهوم المريدية وبيان جذورها الفكرية في التصوف الإسلامي وموقعها داخل البنية التربوية للصوفية.
2. تتبع التطور التاريخي للمريدية في مالي منذ دخول التصوف إلى المنطقة وحتى العصر الحديث.
3. تحليل علاقة الشيخ بالمريد وفهم أسسها، وضوابطها الشرعية، وأثرها في تكوين الشخصية الصوفية.
4. استكشاف أصناف المريدين في مالي ودراسة العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تسهم في تشكيل هذه الأنماط.
5. رصد الممارسات التقليدية والحديثة المرتبطة بتربية المريدين، مع التركيز على ظواهر مثل التسوّل، والخدمة، وأنماط الطاعة.
6. تقييم مظاهر الانحراف أو الاستغلال التي طرأت على المريدية، وبيان آثارها السلبية على المجتمع وسمعة المؤسسات الصوفية.
7. تحليل إسهام الطرق الصوفية المعاصرة—وخاصة التجانية بنسختها الحموية—في صياغة الواقع الديني والاجتماعي في مالي.
8. تقديم رؤية نقدية إصلاحية تهدف إلى تحسين واقع تربية المريدين بما ينسجم مع مقاصد الشريعة وينهض بالدور التربوي للصوفية.

9. الإسهام في إثراء الدراسات الدينية والاجتماعية المتعلقة بالتصوف وحركة المريدين في غرب أفريقيا.

واعتمد هذا البحث **منهجا** مركّبا يجمع بين عدد من المناهج العلمية التي تقتضيها دراسة ظاهرة المريدية في مالي من مختلف أبعادها التاريخية والاجتماعية والدينية، شملت: المنهج التاريخي، المنهج الوصفي التحليلي، المنهج النقدي، والمنهج الميداني بمقابلة شيوخ الزوايا أو المريدين، مما يعزز الجانب التطبيقي للبحث.

وينحصر هذا البحث على دولة مالي، مع التركيز على المناطق التي تنشر فيها الزوايا والمدارس الصوفية، كما أنه يغطي الفترة الممتدة من القرن 4هـ/10م ــ التي تمثل مرحلة دخول التصوف في مالي ــ إلى العصر الحديث القرن 15هـ/21م، مع التركيز على التحولات التي طرأت على المريدية تحديدا خلال القرنين الأخيرين.

وقد تضمّن هذا البحث مقدمة، تناولنا خلالها مشكلة البحث وأهميته، وأهدافه ومنهجه وحدوده، و**هيكلا** تناول الموضوع الرئيسي من جانبين أساسيين:

الأول: ظاهرة المريدية في مالي: تناولنا خلالها مفهوم المريد وأصنافه وظاهرته ومعضلة إعاشته وجدلية الاحتياج إلى شيخ.

الثاني: طاعة المريد للشيخ في مالي: تناولنا خلالها الطاعة من حيث المعاملات والعبادات.

وختمنا البحث بنتائج وتوصيات وخاتمة.

1 ـ مفهوم المريد في مالي

المريد، وجمعه "مريدون"، لقب من ألقاب طلبة العلم عند الصوفية، ورتبة من رتب التصوف، ويعني المتعلم (المبتدئ)، والسالك لطريقة وفق منهاج صوفي، على يد شيخ طريقة صوفية، يتم اختياره من قبله بعد اجتيازه اختبارات تثبت صلاحيته للتعلم، وتؤكد استعداده لسلوك الطريق الصوفي[1].

وعرف الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ/1165م) المريد بأنه " من ترك ما جرت عليه العادة، وأقبل على الله وطاعته، وعمل بما في الكتاب والسنة، وصمّ عما سوى ذلك[2].

---

1 ـ للتعريف بالمريد لدى الصوفية، انظر الرابط " https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B1%D9%8A%D8%AF ". أما لقب "الشيخ" (لقب علمي أعلى لدى الصوفية) فيطلق على العالم الصوفي الذي تولى عملية التعليم بعد بلوغه مرتبة فكرية وروحية متقدمة (ـ الزبون، أحمد محمد عقلة، آداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل من المؤلفات الصوفية في الفترة الزمنية الممتدة من القرن 3هـ إلى 7هـ، دراسة تحليلية ونقدية في ضوء الكتاب والسنة، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، الأردن، العدد3، المجلد 12، 1437هـ/2016، ص 196). وللشيخ في الصوفية ألقاب مترادفة منها: القطب، الغوث، الخليفة، قطب الزمان، قطب الوقت، شخص الوقت، صاحب الوقت.. وغيرها عديدة (الزبون، أحمد محمد عقلة، المصدر نفسه، ص 200 - 202.).

2 ـ الجيلاني، عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1996، ص 440 - 441.

يوقفنا هذا التعريف على أن المريد شخصية مبتدئة في التصوف الإسلامي، وأن هذا اللقب رتبة ابتدائية في الصوفية، وهو الحال لدى صوفية مالي[3]، حيث نجد الشيخ (صاحب الإذن المطلق) في أعلى التسلسل الهرمي الصوفي، بينما المريد يوجد في أسفله، وبينهما مسميات رتبية (مثل المقدّم (بفتح الدال)، والمقدّم (بكسر الدال) والخليفة (صاحب الإذن المقيد)...) تختلف من طريقة إلى أخرى[4].

ويرى أكثر من شيخ صوفي في مالي أن لفظة "المريد" له محذوف، تقديره "المريد لوجه الله"، ويعتمدون في ذلك على قوله تعالى:" واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه...[5]". وقال تعالى أيضا:" ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه..."[6].

فالمريد ـ إذن ـ في مالي هو من قصد شيخا يثق بعلمه ودينه، وسلّم نفسه إليه لخدمته، ولزمه للنهل من معرفته، وأخذ منه أورادا يلتزم به حتى يصل إلى غايته.

وإذا كان الشيخ يمثل الزاوية الرئيسة في الطرق الصوفية، فإن وجود مريدين يعتبر السبب الرئيس في بروز تلك الطرق والمدارس الصوفية، وبدون مريدين ما كان ليقوم لهذه المدارس قائمة.

فالعلاقة بين الشيخ والمريد علاقة من نوع فريد، تقوم أساسا على الحب والتسليم والطاعة والثقة في علمه الظاهر والباطن، وأنه أهل لفهم نفسية المريد وعلاجها وترقيتها وتزكيتها. كل هذا دون أن تكون لهذه العلاقة أية مصلحة إلا الرغبة في الفتح والقرب الإلاهي الذي يسعى المريد للوصول إليه، برجوعه المستمر إلى الشيخ في كافة أموره الدينية والدنيوية، ولحرصه على التماس البركة من الشيخ في كافة أمور حياته، مما يدفع المريد إلى التقيد بطاعة للشيخ لا مثيل له[7].

2 ـ جدلية الاحتياج إلى شيخ

تختصر هذه الجدلية في نظريتين: إحداهما ترى أن لا حاجة للمريد إلى شيخ، لأن الدين قد اكتمل عناصره الأساسية منذ العهد النبوي الشريف، وكل ما هو مطلوب عن الدين وعن الحياة فهو موجود في بطون الكتب المختصة. وتمثل السلفية ـ عموما ـ هذه النظرية[8].

وخلاصة نظريتهم، أنه ليس في الدين بيعة تكليفية مع الشيخ ولا مع المربي، وإنما في الدين مقام رفيع للمعلم، واحترام وتقدير من المتعلم، من غير إفراط ولا تفريط.

وتذهب النظرية الثانية ـ وهم علماء التصوف ومن والاهم ـ إلى ضرورة اتخاذ الشيخ، فهو الواسطة بين الله والمريد، وهو أمين الإلهام، كما أن جبريل عليه السلام كان أمين الوحي[9].

---

3 ـ حسب تأكيد الشيخ محمد المكي باه زعيم صوفي ومؤسس زاوية النور التيجانية بوسط العاصمة (مقابلة معه بتاريخ 21/مارس/2024).

4 ـ مقابلة مع الشيخ إدريس باغايوغو، بتاريخ 2024/03/20. ومقابلة مع الشيخ محمد المكي باه، بتاريخ 21/مارس/2024.

5 ـ سورة الكهف، الآية 28.

6 ـ سورة الأنعام، الآية 52.

7 ـ زروق، أحمد، قواعد التصوف، تحقيق عثمان الحويمدي، حسن السماحي سويدان، دار وحي القلم، بيروت لبنان، ط1، 1425هـ/2004، قاعدة 65، ص73.

8 ـ السهروردي، شهاب الدين عمر، ملحق إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت،1403هـ/ 1982/ج65، ص 265

9ـ السهروردي، شهاب الدين عمر، ملحق ، ص 265.

يقول الإمام الغزالي (ت 505هـ/1111م) في هذا الصدد:" من لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة"[10].

وأوضح الإمام الشعراني (ت 973هـ/1565م) أن الله تعالى" جعل جبريل عليه السلام في صورة مقام الأستاذ للأنبياء تعليما لنا وإرشادا لاتخاذنا الواسطة بيننا وبين الله تعالى"[11].

وأقرّ الإمام القشيري (ت 405هـ/1072م) بوجوب "تأدب المريد بشيخ، لأن من ليس له أستاذ لا يفلح أبدا"[12].

وأكد ابن خلدون أن "المريد يحتاج إلى شيخ، لأن نوع المجاهدة التي يشرف عليها الشيخ المربي هي مجاهدة الكشف، فهي ليست مسطورة ولا مكتوبة، وكل مريد لا يشرف عليه شيخ مربي ويعتمد على النصوص والأخبار، فإن ذلك يشكّل عليه خطرا روحيا ودينيا، لكون هذا المجال يتضمن الكثير من الغرر"[13].

وتابع ابن خلدون قوله موضحا أن " شيوخ الطريقة شيوخ تربية وارتياض ودلالة على أحوال معاينة خارجة عن الاختيار، ليست من قبيل المحسوسات ولا العلوم المتعارفة. وشيوخ الفتيا ـ حملة الشريعة ـ شيوخ نقل وإبانة عن كيفية عمل داخلٍ تحت القدرة ... والفرق بين المقامين كبير، ويجمعهما أنهما على حق"[14].

ومن هنا يتبين أن علماء التصوف أولوا أهمية خاصة لموضوع العلاقة بين الشيخ والمريد، فهي علاقة خاصة يتعهد بموجبها المريد بالانقياد التام لأوامر الشيخ، والابتعاد عن جميع ما ينهى عنه.

كما أنّ على الشيخ أن يقوم ـ بدوره ـ بتربية المريد، والإشراف على مجاهدة النفس والرياضة الروحية وتوجيهها، وتذليل العقبات والصعوبات التي يلاقيها أثناء سعيه وراء تحقيق تلك الأهداف الروحية[15].

3 ـ ظاهرة المريدية[16] في مالي

---

10 ـ الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 1403هـ/ 1982/ مجلد3، ص 75 ـ 76.

11ـ الشعراني، عبد الوهاب، الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، تحقيق حسن محمد الشرقاوي، دار المعارف، الإسكندرية، مصر،1412هـ/ 1991، ص 49 ـ 53.

12القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة مصر، 1394هـ/ 1974/ ج2، ص 734 ـ 735.

13ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق،1417هـ/ 1996م، ص 72 ـ 73.

14ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، المصدر نفسه، ص 132 ـ 133.

15ـ جاخاتي، د. قاسم، الأبعاد الروحية والسلوكية لعلاقة الشيخ بالمريد في الفكر الصوفي، مجلة آفاق علمية، دورية نصف سنوية محكمة، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، عدد10، جوان، 1438هـ/2015ص 96. وتختلف الطرق التي اتبعها شيوخ الطرق المتعددة في تربية مريديها. فقد يسلك بعضهم طريق الشدة في تربية المريدين، فيأخذونهم بالرياضات العنيفة، مثل كثرة الصيام والسهر وكثرة الخلوة والاعتزال عن الناس وكثرة الذكر والتفكر . وقد يسلك بعض المشايخ طريقة اللين في تربية المريدين، فيأمرونهم بممارسة شيء من الصيام وقيام مقدار من الليل وكثرة الذكر، ولكن لا يلزمونهم بالخلوة والابتعاد عن الناس إلا قليلا. ومن المشايخ من يتخذ طريقا وسطا بين الشدة واللين في تربية المريدين، ولذلك قيل الطرق إلى الله على عدد أنفاس الخلائق.

16ـ يحسن التفريق هنا بين لفظ "المريد" كمصطلح وبين "المريدية" كاسم لطريقة صوفية مشهورة بالسنغال، تتفرع عن القادرية، وتعتبر من أكبر الطرق الصوفية المعاصرة بالسنغال، من حيث الصدى والأتباع. أسسها الشيخ أحمد بامبا (إمباكي مولدا) بن محمد بن حبيب الله (ت 1346هـ/1927م)، وتتخذ من مدينة طوبى السنغالية مقرا روحيا لها. (خديم امباكي، الطرق الصوفية في السنغال: الأسس والتطور والعلاقات، ضمن بحوث "الطرق الصوفية بغرب إفريقيا، السياقات

لما كانت مالي قد عرفت الإسلام بصفة رسمية عن طريق دولة قامت على أكتاف تلاميذ الرباط والزوايا، وهي دولة المرابطين، فإنه من البديهي القول إن التصوف هو بذرة الإسلام الأولى في هذا البلد العريق.

وإذا كان الواقع هو هذا، وهو كذلك، فإن مالي قد عرف ـ بلا شك ـ المريدية منذ منتصف القرن 4هـ/10م، عندما هيمنت دولة المرابطين على مملكة غانة (واغادو)، وأنشأت المدارس القرآنية التي اكتظت بالمريدين[17].

وخلال القرن 8هـ/14م، وأثناء رحلة ابن بطوطة المغربي (ت 771هـ/1369م) إلى مملكة مالي سنة 754هـ/1353م، وبالتحديد أثناء زيارته لمدينة تمبكتو، أقرّ بوجود الكتاتيب القرآنية بالمدينة وكثرتها، واهتمام المريدين بشد الرحال إليها، بل واهتمام السكان عموما، والخواص بحفظ القرآن الكريم وعلومه[18].

وظل الأمر كذلك إلى أن ظهرت الطرق الصوفية في مالي، ولا سيما القادرية خلال القرن 13هـ/19م، على يد الشيخ سيدي المختار أحمد الكنتي التمبكتي (ت1226هـ/1811م)، وتم تأسيس الزاوية مع ما يتبعها من مريدين في تمبكتو[19].

وتطورت ظاهرة المريدية في مالي خلال عهد دولة ماسينا الإسلامية الفولانية[20] (وسط البلاد)، لمؤسسها شيخو أمادو حمد لوبو باري (ت 1260هـ/1844م)، حيث كثرت المدارس والكتاتيب القرآنية التي يرتادها المريدون صباحا ومساء، وأولت الدولة اهتماما خاصا بهذا المجال العلمي[21].

وإلى عهد هذه الدولة الإسلامية، يرجع تاريخ "تسوّل المريد" في مالي[22]. ففي ذلك العهد كان على الأطفال المترددين على التعليم القرآني ومدارس التحفيظ (الكتاتيب) طرق أبواب السكان لتسول غذائهم، وكان التسول في تلك العصور يدخل في إطار التدريب والترويض، الهدف منه "تدريب الأطفال على الزهد والحياة القاسية"[23].

الاجتماعية والأدوار السياسية"، مجموعة من الباحثين، تحرير سيدى محمد أحمد ولد الأمير، مركز الجزيرة للدراسات، ط1، 1443هـ/2021م، ص 34-35).

17 ـ كروما، الشيخ إسماعيل إبراهيم، جهود العلماء الأفارقة في خدمة الثوابت الدينية المشتركة، المغرب، مجلة العلماء الأفارقة، عدد5، السنة الثالثة،1443ه/ 2022، ص 11.

18 ـ يقول ابن بطوطة في هذا الصدد:" ومن محاسنهم [أي سكان مالي]، عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوا. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيّدون، فقلت له ألا تسرّحهم فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن..." (ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2020، ج2، ص 500).

19- باري، عثمان برايما، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين، القاهرة مصر، ط1، 1421هـ/2000م، ص 229. محمد نعايم والسعدية أوتبعزيت، الشيخ المختار الكنتي، حياته وتصوفه، مجلة دعوة الحق، الرباط، المغرب، العدد 415، ربيع الثاني، 1437هـ/2016، ص 16.

20 ـ هي دولة قادرية، امتدت من سنة 1225هـ/1810م إلى سنة 1279هـ/1862م.

21- كانت هذه الدولة الفولانية الإسلامية مطبوعة بطابع إسلامي خالص، حيث قامت على أكتاف مريدي الشيخ المؤسس الذي كان معلما قرآنيا، لذا كان التعليم بالدولة منتشرا في المدارس القرآنية، كما كان نظامه إلزاميا ومجانيا. (الفلانيّون وإسهامهم في الحضارة الإسلاميّة بمالي خلال القرنين (12-13هـ/18-19)، محمد جاكايتي، بحث لنيل شهادة الدّكتوراه في اختصاص الحضارة الإسلاميّة، المعهد الأعلى لأصول الدّين بجامعة الزّيتونة، تونس، 2006-2007م، ص 133 - 134).

22- مقابلة مع الشيخ إدريس باغايوغو، باحث ومتخصص في التصوف الإسلامي بمالي، بتاريخ 20/مارس/2024.

23- مقابلة مع الشيخ آدم كويتا بتاريخ 21/فيفري/2024

أما اليوم في مالي، فإن مريدي المدارس القرآنية، يتم استغلالهم يوميا من قبل المعلمين الذين يرغمونهم على التسول لمصلحتهم الخاصة، ويتعين على الأطفال ـ في الغالب ـ العودة من التسول بحد أدنى من المال لتسليمه إلى المعلم، وإلا تعرّضوا للعنف والبلطجة.

هذا، ورغم أن قانون مالي يحظر التسوّل في الطرق العامة، ويعرض محرّض القصّر على التسوّل لعقوبة الحبس لمدة تتراوح ما بين ثلاثة أشهر وعام واحد[24]، فقد أحصت الإدارة الوطنية للتنمية الاجتماعية عام 1429هـ/2007، أكثر من 8000 آلاف طفل (مريد) متسوّل في شوارع العاصمة باماكو، وفي مناطق الوسط بمدينتي سيغو وموبتي[25].

4 ـ أصناف المريد في مالي

والمريد في مـــــــــــــــــــــــــالي أصناف:

1ـ مريد أتى إلى الشيخ بشخصه طلبا للعلم والبركة وتربية النفس، وهذا في الغالب شخص بلغ سن الرشد أو اقترب منه، رأى ـ انطلاقا من دوافع ذاتية ـ قد تكون تنافسا أو تهربا من واقع مرير ـ أن يقصد شيخا لتطهير النفس وتزكيتها[26].

2 ـ مريد حمله وليه إلى الشيخ، وهو في الغالب يكون صغير السن، والدوافع إلى ذلك عديدة منها:

أـ الرغبة الطبيعية في التعليم القرآني وهو الحال مع قبائل الفلان في مالي عموما، ولا سيما فلان وسط البلاد بمحافظتي سيغو وموبتي، وفي الشمال أيضا ولا سيما بمنطقتي تمبكتو وغاوو.

ب ـ اليتم، فاليتيم المتثاقل على أهله وأوليائه، يتخلص منه بإرساله إلى شيخ بمكان مجهول، وبذلك يكون إنسانا مجهول النسب، لا يعرف له أب ولا أم ولا إخوة، وهو الحال مع أغلب المريدين[27].

ج ـ العوز الاجتماعي، حيث يتثاقل نفقات الأولاد على الولي، فيتخلص من بعضهم أو من جميعهم بإرسالهم إلى شيخ يتعهدهم بالتربية والتعليم[28].

3 ـ أطفال محرومون من الرعاية الأسرية بسبب من الأسباب، يتم حمله إلى شيخ يرعاه ويربيه.

والجدير بالذكر، أن الزوايا والكتاتيب القرآنية في مالي لعبت أدوارا هامة في الحياة الاجتماعية منذ القرن 13هـ/19م، فكانت أطفال الشوارع تحمل إليها لتلقي الرعاية الاجتماعية والتربوية والروحية، وكانت نساء الزوايا[29] يلعبن دورا رياديا في هذا المجال.

---

24 - لمزيد المعلومات من التسول وعقوبته، يمكن العودة إلى الرابط التالي: https://www.law-house.net/%D8%B9%D9%82%D9%88%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B3%D9%88%D9%84-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D9%86%D9%88%D9%86/

25 - Mali: Bureau International du Travail *Rapport d'enquête nationale dur le travail des enfants au Mali*, 2007, علما أن ظاهرة التسول في ازدياد مستمر. وتم الاطلاع عليه بتاريخ 22/يناير/2024

26- مقابلة الشيخ محمد تاناتاوو، في 23/يناير/2024 بوسط العاصمة باماكو. هذا، وقد يكون مثل هذا المريد قد سمع بالشيخ من مكان بعيد داخل البلد أو خارجه، فقصده بكل عزم وحزم.

27- الأمثلة في هذا الصدد عبر التاريخ متعددة، ولا سيما عبر العلاقة التبعية بين حكام سيغو والشيوخ الكنتيين في تمبكتو.

28- مقابلة مع الشيخ آدم كويتا، بتاريخ 04 /فيفري/2024. باماكو

29 ـ نعني بالنساء هنا زوجات المريدين اللاتي بمثابة خادمات منازل لنساء الشيخ وأولاده، التماسا للبركة

هذا، وتعدّى الاهتمام الاجتماعي للشيوخ أطفال الشوارع إلى استقبال المصابين بالمس ورعايتهم، وكان يحمل العديد منهم إلى شيخ، فيكبّ على معالجتهم تقليديا، وقد ينجح في معالجة بعضهم، ويصبحوا مريدين صالحين. وتخصص بعض الشيوخ في المجال، واشتهروا به إلى حد يوم الناس هذا[30].

5 ـ معضلة إعاشة المريد في مالي

قدمنا سابقا أن الشيخ هو من يجلس لعملية التعليم والتربية والترويض والتزكية، بعد بلوغه مرتبة فكرية وروحية متقدمة، حيث يتخذ لنفسه مجلس علم، ويقبل عليه المريدون من كل مكان على اختلاف فئاتهم العمرية وانتماءاتهم القبلية، فلا غرو ـ إذن ـ والحال هكذا، أن توضع خطة محكّمة في تحصيل إعاشة المريدين والشيخ على حد سواء.

أ ـ في البداية، وفي المدن الإسلامية التاريخية بمالي، على غرار مدن تمبكتو، جنى، وغاوو. كان الشيخ بمجرد أن يتخذ لنفسه مجلسا للعلم، ويجتمع عليه مريدون، يتفق مع أولياء مريديه على تحديد "يوم معين" خلال الأسبوع، يجمع فيه أنواعا للطعام والمال والهدايا للشيخ ومريديه[31]، وذلك مثل الحبوب بأنواعه، والأسماك والماعون واللحوم والملابس، وكل ما قد يحتاجه الشيخ ومريدوه خلال الأسبوع.

ب ـ بعد قيام دولة ماسينا الإسلامية بحمد الله بدايات القرن 13هـ/19م، اهتمت الدولة بالتعليم الديني عموما، والقرآني منه على وجه الخصوص، حيث كان الإقبال عليه شديدا، فارتأت الدولة ـ إلى جانب تحديد يوم معين لتلقي إعاشة المريدين من الأولياء ـ أن تشرع التسوّل لأول مرة في تاريخ مالي، لسد فراغ معضلة الإعاشة في الزوايا والمدارس القرآنية[32].

وكانت الدولة تهدف من هذا التشريع ترويض المريد على الحياة القاسية، ولذا، كان المتسول (المريد) لا يقبل من الأهالي إلا الطعام فقط دون المال[33].

ج ـ يعمد بعض الشيوخ إلى استقطاع الحقول والمزارع وتربية الحيوانات، حيث يستخدم فيها المريد، ويصير مصدر عيش للشيخ ومريديه على حد سواء[34].

د ـ في مالي المعاصرة، انتشرت المدارس القرآنية والزوايا في كافة أرجاء البلاد، واكتظت مجالسها بالمريدين، وأصبح التسول في الدور والشوارع من قبل المريدين وغيرهم جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية[35]، وتبدل هدف التسول من التدريب على الحياة القاسية إلى

---

30 ـ والأمثلة في هذا الصدد متعددة، مثل كل من الشيوخ المشهورين: الشريف محمد بويا حماه الله في نيورو، كولا ميغا بمدينة سيغو، عويص كونتا في باماكو العاصمة، إسماعيل باه في كولوكاني، لاسينا كانى في سيغو، وعائلة كونتا في قرية كومينا

(جورو، سيغو)، (مكالمة هاتفية مع الشيخ عثمان نانتومى، شيخ مدارس قرآنية، ورئيس مجلس قراءة ورش بمالي، بتاريخ 05/مارس/،2024. ومقابلة مع الشيخ محمد المكي باه، بتاريخ 21/مارس/2024).

31- في مدينة جنى مثلا، تم تحديد يوم الأربعاء لهذا الغرض، فكان الأهالي يجمعون ما لديهم من الأطعمة والهدايا إلى الشيخ، حيث يجمع هذا الأخير قوته الأسبوعي مع مريديه في هذا اليوم المذكور أعلاه. (مقابلة مع الشيخ محمد تاناتاوو، بتاريخ 29/يناير/2024، باماكو العاصمة).

32 ـ مقابلة مع الشيخين: إدريس باغايوغو، بتاريخ 20/مارس/2024، ومحمد المكي باه، بتاريخ 21/مارس/2024.

33- مقابلة الشيخ تاناتاوو، محمد، بتاريخ 29/يناير/2024، باماكو.

34 ـ مقابلة الشيخ محمد المكي باه، بتاريخ 21/مارس/2024.

35 ـ من الملاحظ أنه يوجد أولاد منتشرون للتسول وطرق الأبواب باسم المدارس القرآنية، في حين أنهم في الواقع ليسوا مريدين، ولا ينتسبون إلى أية مدرسة صوفية أو قرآنية (مكالمة هاتفية مع الشيخ عثمان نانتونى في 05/ مارس/2024).

البحث عن حياة ناعمة، وأضحى الشيخ وعائلته وأقرباؤه يعيشون من محصّلات المريدين[36]، حيث يتم تكليف كل واحد منهم بالعودة من التسول بمبلغ مالي محدد، وإلا قد يعرض نفسه للعنف بشقيه اللفظي والجسدي[37].

وقد أثّر هذا الضغط والإكراه سلبا على نفسية المريد (المتسوّل)، مما دفع الكثير منهم إلى ارتكاب المحظورات، مثل السرقة[38] وبيع المخدّرات بل وإدمانها، أو يصبح "طفل شارع"، يهجر مجلس الشيخ، ويتجه لمجهول في حياته كل ما يعرف عنه أن عاقبته غير محمودة[39].

وإذا كان المتسول في ظل دولة ماسينا الإسلامية لا يقبل من السكان إلا الطعام كما أسلفنا القول أعلاه، فإن العكس صحّ في عصرنا، حيث لم يعد يحبّذ المتسول (المريد) إلا المال، ولا يعير للطعام اهتماما، وقد يهرقه أحيانا إذا شبع، وفي أحسن الأحوال، يخيّر المتبرع في تقديمه المال بدل الطعام.

وتطوّر عملية التسول مما هو معهود عليه إلى أن يحزم الشيخ حقائبه مع عائلته ومريديه في كل موسم حصاد، ويجول في المدن والبوادي لجمع الحبوب والأموال وزكاة الحيوان، ويمثل مثل تلك الجولة الموسمية فرصة لكسب المزيد من الشهرة، والازدياد من المريدين.

وبعد انتهاء الجولة، وجمع الكثير من الطعام والمال والأغنام، يعود الشيخ إلى مجلسه العلمي بقريته المعتادة، وقد حقّق الكثير من همومه الاقتصادية السنوية[40].

هذا، ويدفعنا التسول السلبي الذي دفع بالمريد إلى أن يكون طفل شارع يتسكّع في الليالي، ويدمن المخدرات، ويسرق ممتلكات الناس، إلى النظر في مسالة "طاعة المريد للشيخ".

6 ـ طاعة المريد للشيخ في مالي

تبقى الطاعة أهم واجبات المريد نحو الشيخ. يقول ابن حجر الهيتمي (ت974هـ/1566م):" ويتعيّن على المريد التمسّك بهدي الشيخ، والدخول تحت جميع أوامره ونواهيه... حتى يصير كالميت بين يدي الغاسل، يقلّبه كيف يشاء"[41].

والطاعة في الفكر الصوفي أمر مكتسب بخطوات ومراحل يمر بها المريد، حتى يصل إلى الترقية الروحية التي يصبو إليه.

36ـ كلامنا هنا مقيد وليس مطلقا، لأننا نعرف زوايا في مالي وبالتحديد في مدن مثل العاصمة باماكو ينفق الشيخ على مريديه كلهم، ويزوجهم، ويسكنهم بلا مقابل في منازله، بل ويجد لهم مصدر رزق، حتى يعيشوا عيشة كريمة، ويكفينا هنا مثالا حيا ذكر زاوية "النور" التيجانية، لمؤسسها الشيخ محمد المكي باه، أطال الله بقاءه للإسلام والمسلمين.

37ـ شخصيا، لا أتذكر وأنا أمشي في الشارع، كم مرة استوقفني طفل (مريد) باكيا ومتشكيا، يرجو مني فرنكا معينا لتكملة المبلغ المتبقى عليه حتى يتمكن من العودة إلى مجلس الشيخ. ومثل هذا المشهد يتكرر بصفة يومية على أمثالي، ولا سيما بالعاصمة باماكو والمدن الكبيرة الأخرى في مالي.

38ـ شاهدت هذا بأم عينيّ، عندما تم القبض على مريد صغير السن (09) سنوات، برّر عمله الشنيع بالعنف الجسدي الذي يتلقاه من شيخه في حالة عدم استيفاء المبلغ المطلوب يوميا.

39ـ حسب عملية استقصائية حديثة لأطفال الشوارع في العاصمة باماكو، تبين أن ثلثاهم من المريدين الذين هجروا مجالس شيوخهم لأسباب مختلفة. (مقابلة مع العون الاجتماعي مامادو كوليبالي، بتاريخ 26/يناير/2024).

40ـ تجوّل الشيخ مع مريديه ليس عادة لدى جميع الشيوخ، وإنما يقتصر على ثلة منهم وفي مناطق معينة بالبلاد (الوسط مثلا) وإلا فما أكثر الزوايا التي لا تعتمد على التسول معاشا أبدا، بل إن مريديها يمارسون أنشطة اقتصادية لإعاشة أنفسهم وأسرهم، بل ومجتمعهم.

41ـ الهيتمي، أحمد شهاب الدين بن حجر، الفتاوي الحديثية، دار المعرفة، بيروت لبنان،1430هـ/ 2009 ص 57.

وتعتبر التوبة من الذنوب أولى خطوة رياضية للمريد انطلاقا من قوله تعالى" **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**"[42].

وتعمل عملية التوبة على غرس محبة الشيخ في قلب المريد، فهي وسيلة لشدّ قلبه إلى الشيخ والإذعان له.

وإذا عزم المريد على صفاء قلبه تجاه شيخه، رأى الشيخ الجيلاني [43]أن يداوم على قراءة هذه الآية الكريمة " **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم**"[44].

أما الخطوة الثانية لغرس محبة الشيخ في قلب المريد، فهي أخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله، والسير في الطريق المرسوم.

الخطوة الثالثة، الخرقة، وهو لباس يخلعه الشيخ على المريد بعد تلقي العهد. والسرّ في لبس الخرقة كونها رمزا للرباط الوثيق بين المريد وشيخه، وإعلان من المريد أنه قد فوّض أمره إليه، وأنه قد حكّم الشيخ في نفسه، وأذعن طائعا مختارا لأمره ونهيه[45].

الخطوة الرابعة، التلقين، وهو تعليم الشيخ للمريد قصد تربية الروح أمورا من أهمها:

ـ تلقينه الأذكار بعد التأكد من صحة عزم المريد على ذلك، والحث على مداومة ذلك الذكر.

ـ إلزام المريد بالمداومة على الطهارة

ـ النصح بالتقليل من النوم إلا الغلبة

ـ التقليل من الغذاء بصفة تدريجية

ـ الأمر بإيثار الخلوة والعزلة[46].

وهي أمور من شأنها أن تعمل على تهذيب نفسية المريد، وتأهيلها لطاعة الشيخ كلما اقتضت الحاجة.

وبالرجوع إلى الزوايا والكتاتيب بمالي، يمكن أن نلحظ أنواعا عديدة لطاعة المريد لشيخه، وهي طاعة شملت الظاهرة والباطنة، والمحمودة والمذمومة.. غير أننا سنعتمد هنا التقسيم الثنائي للطاعة من حيث المعاملات والعبادات.

أولا، طاعة المريد للشيخ في المعاملات

يشغل هذا النوع من الطاعة حيزا كبيرا ومجالا واسعا ومتنوعا من العلاقة بين المريد والشيخ. والطاعة غاية ومحصلة نهائية لآداب السلوك والضوابط الأخلاقية التي وضعها علماء الصوفية لتنظيم العلاقة بين المريد والشيخ في شتى المجالات، لذلك فإن الكتب الصوفية التي تتحدث عن الأدب والسلوك للمريد، هي كتب تسعى إلى تكريس طاعة المريد للشيخ، عبر

42- سورة النور، الآية 31.

43- الجيلاني، عبد القادر، الغنية، ص 445 - 447.

44- سورة الحشر، الآية 10.

45- السهروردي، شهاب الدين عمر، عوارف المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1420هـ/ 1999م، ص 74. الزبون، أحمد محمد عقلة، آداب، ص 211 - 212.

46- القشيري، عبد الكريم، الرسالة، ص 736 - 738.

وضع ضوابط ومحددات غايتها إلزام المريد على طاعة الشيخ في طاعة الله، أما إذا كانت الطاعة في غير طاعة الله، فلا يعتدّ به[47].

وتشمل الطاعة في المعاملات بمالي جوانب عديدة من حياة الشيخ والمريد، يمكن أن نختصرها في جانبين رئيسيين لكونهما شاملتين وجامعتين: الطاعة في المنزل والطاعة في المجلس العلمي.

أ ـ **الطاعة في المنزل**: ينزل المريد ـ عادة أو في أغلب الأحوال ـ على الشيخ في منزله، ويقصد وليه من ذلك أن يخدم شيخه خير خدمة، حتى يكسب منه البركة.

وقد دأب الناس عندنا في مالي أن يخدم المريد شيخه سنين عددا قبل أن يجيزه هذا الأخير في مهمة ما، قد يكون استخدام اسم عظيم من أسماء الله الحسنى، أو يلزمه بورد معين، أو يأذن له في اتخاذ مجلس للتعليم.

وعليه، كان على المريد أن يساهم في إنجاز كافة الخدمات المنزلية، نزولا عند طاعة شيخه، وتبركا به، من قبيل:

ـ الاحتطاب للشيخ وأهله، بالحمل على الرأس، أو عبر العربة المجرورة بالحمار.

ـ استيراد الماء بالدلو من البئر العادي ونحوها كلما اقتضت الحاجة، حيث يتم ملء القدور والأواني لزوجات الشيخ وأولاده، وهي عملية تستمر على مدار اليوم دون انقطاع.

ـ تنظيف المنزل ودورات المياه بصفة يومية وكلما اقتضت الحاجة، دون تفريق في ذلك جنس المريد.

ـ القيام بغسل ثياب الشيخ وأهله تبرّكا، مع ما يتبع ذلك من تجفيف وحراسة حتى يجفّ.

ـ الالتزام بأدب اللباس داخل المنزل وخارجه.

ـ الاهتمام بأولاد الشيخ من حيث السهر على أمنهم وسلامتهم، وتنظيفهم إلى قضوا حوائجهم، أو احتاجوا إلى غسل ونحوها من الخدمات العديدة.

ـ تفريش الأَسِرّة للشيخ وأهله وأولاده مساء، طلبا للبركة، ثم القيام بطيّها وتنظيمها صباحا بعد النوم.

ـ القيام بمسح جسد الشيخ ـ بزيت مثلا أو بدونه ـ تبركا بالشيخ وطلبا للراحة له، قد تستمر أكثر من ساعة، بل أحيانا يتواصل به المسح حتى ينام الشيخ. ويعاب على عملية المسح هنا، كونه أحيانا مدعاة إلى التأخير في الصلاة، بل وتركها أحيانا[48].

ـ أكل ما تبقّى من طعام الشيخ وأهله. وقد جرت عادةَ تبرّكٍ لدى المريدين في مالي أن لا يأكلوا من الطعام الحالي حتى ينتهي الطعام السابق أكلا ولو كان مُبيّتا.

ـ التزام المريد بأدب النوم والركون إلى ذلك في وقته والاستيقاظ مبكرا من أجل خدمة الشيخ وأهله.

ـ الاستعداد التام للموسم الزراعي، والقيام بفلاحة أراضي الشيخ ومزارعه، وبذل الجهد في تحقيق موسم فلاحي ناجح يغني الشيخ عن شراء الحبوب والمعاش الضروري على مدار السنة.

47ـ نستحضر هنا قول الشيخ أحمد التيجاني رحمه الله عن نفسه " إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع، فإن وافق فاعملوا به، وإن خالف فاتركوه" (على حرازم المغربي، على براده المغربي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1438هـ/2017م، ص 94). فالشيخ هنا ـ رحمه الله ـ برّأ ذمته من كل ما يخالف الشريعة المطهرة، وبرهن على سنية طريقته (التيجانية).

48 ـ يندر حدوث مثل هذا إلا لدى شيوخ مالوا عن سنن التصوف، واتجهوا نحو الطاغوتية

ـ القيام بكافة الأعمال والخدمات المتعلقة بالشيخ وعائلته، مثل بناء منزل الشيخ وعائلته أو ترميمه، رعي أبقار الشيخ وأغنامه، الاهتمام بدواجن الشيخ ونحوها عديدة، والمريد في هذا كله ينطلق من القاعدة الصوفية " من خَدَم خُدِم".

ب ـ <u>الطاعة في المجلس العلمي</u>: وتشتمل على مجموعة آداب وسلوك يتحلى المريد بها حتى يكون ملتزما بطاعة شيخه. من أهم الأمثلة على ذلك:

ـ التزام المريد بآداب الجلوس إلى الشيخ، مثل: أن لا يمد رجله تجاه شيخه، وعليه أن يجلس متورّكا بين يديه، ولا يتربّع أبدا بحضرته.

ـ التزام المريد بآداب التلقين، مثل التأني في القراءة، وتفادي التعجيل والتسرّع الموصلة إلى الخطأ.

ـ التزام المريد بآداب الإصغاء، وذلك بالإنصات التام لكل ما يقوله الشيخ.

ـ التزام المريد بأدب الكلام مع الشيخ، من قبيل عدم رفع الصوت، والامتثال بالسكوت بحضرة الشيخ.

ـ التزام المريد بأدب السؤال والاستفسار، حيث لا يجوز في حق المريد أن يعترض على أقوال الشيخ.

ـ التزام المريد بأدب الدخول والخروج عند الشيخ، فلا يستعجله في موضع خلوة مثلا.

ـ التزام المريد بالسكينة والوقار في مجلس الشيخ، فلا يتكئ على شيء يعتمده، ولا يتثاءب ولا ينام ولا يضحك بلا سبب، لأن ذلك من عدم المبالاة بالشيخ وعدم احترامه وطاعته.

ـ التزام المريد بالمداوة على حضور مجلس الشيخ. وقد قيل سابقا": زيارة المربّي ترقّي وتربّي".

ـ التزام المريد بالمقولة السائدة لدى السادة الصوفية" الاجتماع، الاستماع، والاتباع"، وبذلك يحصل الانتفاع.

ـ التزام المريد بالطهارة (الظاهرة والباطنة) عند الجلوس إلى الشيخ.

ـ التزام المريد بعدم وطء القدم مجلس الشيخ، أو سجادته، فلا يتخطى فراشه أو وسادته، ولا يرتدي بردائه، ولا يسبّح بسبحته، ونحوها عديدة[49].

ثانيا، طاعة المريد للشيخ في العبادات

قبل الخوض في هذا الموضوع يحسن التفريق هنا بين العبادة والطاعة. فالعبادة تكون خالصة لله وحده، لا يشاركه في ذلك أحد.

أما الطاعة فهي تكون لله، كما تكون لغير الله، وتنقسم هذه الأخيرة بدورها إلى:

أ ـ الطاعة في طاعة الله، مثل تكليف الشيخ المريد بالالتزام بأوراد معينة، فهذا معتدّ.

ب ـ الطاعة في طاعة غير الله، مثل تكليف الشيخ المريد بترك فريضة من فرائض الله لأسباب واهية لا أساس لها، فلا يعتدّ بهذا.

وإنه لا يشك أحد في أنّ الشيخ يعمل دوما على ترويض شخصية المريد وتطويعها وتعويدها على مجاهدة النفس[50]، التي تشكل مرحلة تحول حاسمة في التجربة الروحية للمريد.

49ـ السلمي، أبو عبد الرحمن، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1419هـ/1998م، ص 119. الهيتمي، أحمد شهاب الدين بن حجر، الفتاوي الحديثية، ص 55.

50 ـ قال الله تعالى:" والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين" (سورة العنكبوت، الآية 69).

ومن هنا تكمن أهمية دور الشيخ الروحية والدينية في حياة المريد، ولذا اشترط علماء الصوفية توفّر شروط محدّدة ودقيقة في الشيخ، تؤهّله لتولي هذه المسؤولية الجسيمة التي تتقاطع بعلاقة الطاعة والعبادة[51].

وتفاديا للوقوع في أية طاعة لغير الله، عاب بعض الباحثين آدابا وسلوكا ومفاهيم تعبدية، ترتبط بالعلاقة بين الشيخ والمريد، من قبيل:

ـ المبالغة في طاعة الشيخ وعدم مخالفته في كل ما يأتي به، ودعوة المريد إلى الانقياد التام له.

ـ تقديم الذكر في الأهمية على العديد من العبادات مثل قراءة القرآن الكريم.

ـ الاقتصار على شيخ واحد في التربية، ومن هنا تم منع انتقال المريد من طريقة إلى أخرى[52].

ـ فناء المريد في ذات الشيخ أثناء الذكر، بملازمة مخيلته صورته على الدوام.

ـ تأخر الشيخ في تسريح المريد، حيث لا يمكن لهذا الأخير مفارقته إلا بإذنه، وعليه ينتظر سنين قد يبلغ به العمر عتيا دون زواج أو البحث عن أي مصدر رزق آخر، ولأنه ساد في المعتقد الصوفي أن كل من غادر المجلس دون إذن يفقد البركة في كافة أعماله.

ـ إحداث بعض البدع في تلاوة القرآن الكريم، مثل تكليف المريد بالقبض على الأذنين عند سجود التلاوة ونحوها[53].

وفي مالي، لم تسلم بعض أتباع الطرق الصوفية من بعض المآخذ التعبدية، التي نتجت عن الطاعة المطلقة من المريد للشيخ. وتقدم "الحموية" في مالي أحسن مثال في هذا الصدد[54].

والحموية نسبة إلى لقب مؤسسها الشيخ الشريف أحمد حماه الله، من مواليد مدينة نيورو (غرب مالي)، قاوم الاستخراب الفرنسي، وانتهى به الأمر إلى نفيه إلى فرنسا خلال عام 1361هـ/1941م، حيث توفي بها ـ بعد سنتين من النفي ـ حوالي سنة 1363هـ/1943.

والحموية فرع من التجانية تتخذ من مدينة نيورو (NIORO) الغربية مقرا لخلافتها، حيث يقيم خليفتها الحالي الشيخ محمد ولد الشيخ أحمد محمد حماه الله (المشهور بـ"بويا" (Bouya))، أحد أبناء الشيخ حماه الله المعمّرين، وأحد رموز التأثير الروحي القوي على السياسة الإقليمية عموما، ومالي منها بشكل خاص.

واستطاعت الحموية في زمن قياسي مدّ ظلالها على أصقاع كبيرة من إفريقيا الغربية، وخصوصا في مالي وساحل العاج وغينيا كوناكري وغينيا بيساو[55].

---

51 ـ الزبون، أحمد محمد عقلة، آداب، ص 202 ـ 207. الشعراني، عبد الوهاب، الكوكب الشاهق، ص 53. جاخاتي، د. قاسم، الأبعاد الروحية، ص 103.

52 ـ الزبون، أحمد محمد عقلة، آداب، ص 209 ـ 214.

53 ـ مكالمة هاتفية مع الشيخ عثمان نانتومي، بتاريخ 05/ مارس/2024.

54 ـ يوجد في مالي أكثر من مثال حي في هذا الصدد، ولا سيما مع جماعة "أنصار الدين" بزعامة الشريف عثمان مدان حيدرا، حيث إن طاعة الشيخ مطلقة في أكثر من مسألة تعبدية، مثل القول بجواز الصلاة باللغة المحلية.

55 ـ سعيد، غانمي عمر، الطريقة التيجانية ودورها في نشر الإسلام بغرب إفريقيا، موقع المدى، بعنوان (https://www.google.com/search?client=firefox-b-d&q=%D9%85%D9%88%D9%82%D8%B9+%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AF%D9%89) منشور بتاريخ 04/مارس/2011، تم التصفح في 28/يناير/2023. ديالو، أحمدو تال، الدعاء عند الصوفية في مالي، ندوة الدعاء في الأديان السماوية، خلال يومي 26 ـ 27 أفريل 2023، جامعة الزيتونة، المعهد العالي للحضارة الإسلامية، تونس، ص 6 ـ 7.

وبحكم الأدوار التاريخية التي لعبتها الحموية، وبحكم أطروحتها المخالفة للمعهود عند التيجانيين، أصبحت طريقة شبه مستقلة، تضاهي الطرق الصوفية العريقة في المنطقة من حيث الانتشار والتأثير.

وتتميز الطريقة الحموية عن غيرها من الطرق الصوفية بشكل عام، وفروع الطريقة التجانية بشكل خاص بأربع مسائل تعبدية أساسية، أتت نسبة طاعة المريد الحموي من كل مسألة منها على درجات متفاوتة.

المسالة الأولى: الخلاف في عدد المرات التي ينبغي أن تتلى بها صلاة "جوهرة الكمال[56]"، حيث تعتمد سائر فروع التجانية تلاوتها اثنتي عشرة مرة، ولذلك سميت "التجانية الاثنا عشرية"، في حين يرى الحمويون تلاوتها إحدى عشر مرة فقط، ولهذا يسمون بـ"التجانية" الإحدى عشرية[57].

وقد دار جدل واسع بين التجانيين حول هذه القضية، ولكن الشيخ حماه الله أصرّ على رأيه في القضية، موضّحا أن رأيه هو المنصوص عليه في كتاب " جواهر المعاني للشيخ علي حرازمي"، وأن أتباع التجاني حرّفوا ذلك بهذه الزيادة[58].

ويبدو أن المريد الحموي في كل مكان، داخل مالي وخارجها، قد أجمعوا على طاعة الشيخ في هذه المسألة غير المعهودة لدى التجانية.

المسالة الثانية: القصر في الصلاة، لما كان قصر الصلاة في الشريعة الإسلامية يشرع في حالتي السفر والجهاد، فإنّ الشيخ حماه الله ـ بعد عودته من السجن الذي قضى فيه عشر سنوات ـ بدأ يقصّر صلاته، لأن البلاد كانت في حالة خوف دائم، وحالة جهاد مستمر مع المستخرب الفرنسي. وهما عاملان يجيزان له ـ بلا شك ـ القصر في الصلاة.

وقد كانت هذه الخطوة موجّهة بالأساس للمستعمر الفرنسي، وتحمل دلالات سياسية وليست مجرد مسألة دينية[59].

ويبدو أن طاعة الشيخ حماه الله في مسالة القصر من قبل مريديه لم تكن شاملة، حيث إن الزاوية الأم بمقر الخلافة الحموية في نيورو لا يقصّرون الصلاة[60]، في حين أكد الباحث

56- ونص جوهرة الكمال:" اللهم صلّ وسلّم على عين الرحمة الربّانية، والياقوتة المتحقّقة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكوّنة الآدمي، صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرياح المالئة لكل متعرض من البحور والأواني، ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني. اللهم صل وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق، عين المعارف الأقوم، صراطك التام والأسقم. اللهم صل وسلم على طلعة الحق بالحق، الكنز الأعظم، إفاضتك منك إليك إحاطة النور المطلسم، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تعرفنا به إياه ".

57 ـ يحسن الإشارة هنا إلى الطريقة التيامية (نسبة إلى اللقب العائلي "تيام" بزعامة الشيخ محمد علي تيام)، حيث إن هذه الطريقة بدورها تتلو جوهرة الكمال 11 مرة فحسب مثل الحمويين (مقابلة الشيخ محمد المكي باه، بتاريخ 21/مارس/2024).

58 -Traore، Alioune، l'islam face a la colonisation française en Afrique d'ouest Cheick Hamahoullah، homme de foi et résistant ,Le Harmattan, 1 Avril, 2015p, 102.
إخليهنا، ولد محمد الأمين، الطريقة الحموية في الساحل الإفريقي، جزء من الحالة الصوفية بموريتانيا ومالي، الطرق الصوفية بغرب إفريقيا، السياقات الاجتماعية والأدوار السياسية، مجموعة من الباحثين، تحرير سيدي محمد أحمد ولد الأمير مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة قطر، ط1، ديسمبر 1443هـ/2021، ص 57.

59- إخليهنا، ولد محمد الأمين، الطريقة الحموية، ص 58.

60- هي حصيلة مقابلات مع أكثر من شيوخ للحموية، نخصّ منهم بالذكر: الشيخ الدكتور محمد الثاني ميغا (الخليفة الحموي العام في بوركينا فاسو)، بتاريخ 2024/01/24. الشيخ عمر كوياتي (زعيم صوفي حموي بالعاصمة باماكو) بتاريخ 2024/01/15.

الموريتاني إخليهنا ولد محمد الأمين في مقالته[61]، أن بعض الحمويين " لم يتركوا القصر في الصلاة بعد زوال أسبابه، وأنّهم ما زالوا يقصّرون الصلاة حتى يوم الناس هذا"[62].

وقد يكون الباحث الموريتاني عنى بقوله هذا بعض حمويي موريتانيا[63]، أو في منطقة أخرى، وقد أسفر قيامنا ببحث ميداني حول الموضوع، أن الزوايا الحموية بمالي لا تدين ـ في أغلبيتها المطلقة ـ بالقصر في الصلاة، إلا ما شذّ منها في مناطق متاخمة مع موريتانيا بمنطقة طوبى وبانامبا، ويتميزون عن سائر الحمويين بوضع "سبحتين" في العنق[64].

ونخلص مما تقدم، أن طاعة الشيخ في القصر في الصلاة لدى الحموية تكاد تكون شبه منعدمة في مالي، بما أن المذهب الرسمي لدى الزاوية الحموية الأم بمدينة نيورو هو عدم تقصير الصلاة، فبطل بذلك القول بقصر الصلاة لدى الحموية في مالي.

المسالة الثالثة: ترك إقامة صلاة الجمعة، قد يستغرب المرء لأول وهلة عندما يسمع أن الطائفة الحموية بمالي لا يقيمون صلاة الجمعة، لكن ذاك هو الواقع الرسمي في مالي، وبالتحديد بالزاوية الكبيرة بمقر الخلافة الحموية بمدينة نيورو الغربية، حيث لا تقام جمعة، بل صلاة ظهر فحسب بأربع ركعات.

وتذهب الحموية في تعليلهم لهذا الاتجاه إلى كونهم يعيشون في حالة ارتهان ديني، فالبلد غير إسلامي، ويدار بأحكام وشرائع غير إسلامية، لذا، فإنهم في حالة استرقاق سياسي وديني. ومن المعلوم أن الرقيق لا تجب عليه إقامة صلاة الجمعة، وعليه، فإن الخلافة الحموية في مالي لا تقيم صلاة الجمعة[65].

وإذا كان الزعيم الروحي للطائفة الحموية بمالي الشيخ محمد ولد أحمد حماه الله يؤكد دوما أن ترك إقامة صلاة الجمعة هو مذهبه، فإنه في المقابل لا يُلزِم مريدا بطاعته في هذا الاتجاه. فقد ترك لهم حرية الاختيار في الإقامة أو عدمها.

وعبر مكالمة هاتفية أكّد لنا الدكتور الشيخ سيدي محمد الثاني ميغا ـ الزعيم الروحي حاليا للطائفة الحموية في بوركينا فاسو ـ أن جده محمد الأول ميغا (رحمه الله) استأذن الخليفة الحموي العام في نيورو في إقامة صلاة الجمعة بمقره في مدينة رحمة الله (بوركينا فاسو)، فأذن له[66].

ونخلص من هذه المسألة أن المذهب الرسمي للطائفة الحموية بمالي هو استبدال صلاة الجمعة بصلاة الظهر، لكونهم ـ حسب نظرهم ـ في حالة استرقاق، والرقيق لا يجب في حقه شرعا إقامة صلاة الجمعة.

---

61 ـ بعنوان" الطريقة الحموية في الساحل الإفريقي، جزء من الحالة الصوفية بموريتانيا ومالي".

62ـ إخليهنا، ولد محمد الأمين، الطريقة الحموية، ص 58.

63 ـ أكد لنا هذا القول الشيخ عثمان نانتومى في محادثة هاتفية. (مكالمة هاتفية مع الشيخ عثمان نانتومى، بتاريخ 05/مارس/2024).

64 ـ مقابلة مع الشيخ محمد المكي باه، بتاريخ 21/مارس/2024. يحسن التذكير هنا أن وضع "السبحة" في العنق شارة يتميز بها الحمويون عن سائر أتباع الطرق الصوفية.

65 ـ تأكدنا من الزاويتين الكبيرتين في نيورو وباماكو العاصمة أنه لا تقام فيهما صلاة الجمعة، بل يصلونها ظهرا بأربع ركعات. وهذا الاتجاه هو الذي يمثل المذهب الرسمي للطريقة، وإلا فإن الحمويين في مالي يؤدون صلاة الجمعة في مالي على انفراد وجماعات في مناطق متفرقة من البلاد.

66 ـ صليت بشخصي أكثر من مرة في زاوية الطائفة الحموية في بوركينافاسو صلاة الجمعة، كما لاحظت أنهم لا يقصرون صلاة أبدا، وذلك خلال الأعوام 2013م، 2014م، 2015م. (مقابلة الدكتور سيدي محمد الثاني ميغا في المدينة المنورة بتاريخ 2020/01/18، وإجراء مكالمة هاتفية مع الشخصية نفسها حول الموضوع ذاته بتاريخ 2024/01/24).

غير أن الطاعة في هذه المسألة غير ملزمة للجميع، بل اختيارية، لكون الشيخ الخليفة في نيورو لا ينكر على مريد إقامته للجمعة، وإن كان هو نفسه لا يقيمها في زاويته الأم بمدينة نيورو.

المسألة الرابعة: عودة الشيخ أحمد حماه الله إلى مالي، فهي تدخل في إطار ما يمكن أن نطلق عليه "ميثولوجيا الغائب المنتظر".

حيث إن المعتقد الرسمي لحموية مالي هو أن الشيخ أحمد حماه الله (المؤسس للطريقة) ـ الذي اعتقله المستخرب الفرنسي سنة 1360هـ/ 1941م إلى فرنسا، وأعلن عن وفاته في مونليسون (Monlisson) بفرنسا سنة 1363هـ/ 1943م ـ لم يمت. بل هو غائب وسيعود، وإن مريديه بانتظار عودته القريبة والمظفرة.

وفي مقابلة للزعيم الروحي الحالي للطريقة الشيخ محمد ولد أحمد حماه الله مع قناة الساحل الموريتانية خلال سنة 1434ه/2013م، أكد على تمسك الحموية بفكرة عودة الشيخ أحمد حماه الله مظفرا، وتابع كلامه قائلا:" إن هذا هو المعتقد الرسمي للحموية"[67].

ويبدو أن فكرة الغيبة مستوحاة من فكر الشيعة الإمامية، التي ترى هي الأخرى أن محمد بن الحسن العسكري اختفى في السرداب، وأنه هو الإمام المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلا وقسطا بعد عودته[68].

ونستحضر هنا مقولة الفيلسوف المغربي الراحل محمد عابد الجابري أن فكرة " المهدوية" أو "الغائب المنتظر" ليست فكرة دينية، وإنما هي "وسيلة لرفض الهزيمة والانهيار، ووسيلة للتمسك بالأمل. فالضعفاء وبسطاء الناس يربطون مطامحهم وآمالهم بأشخاص "رموز"، وإن التمسك بالأمل والرجاء في التخلص من الظلم يقتضيان التمسك بالرمز بعناد"[69].

ولعل هذا ما حرّك الحمويين للتمسّك بعودة الشيخ حماه الله، وبالتالي القول بأنه لم يمت.

ولكن هذا التوجه الذي كان من أجل مواجهة ظرف معين ـ من أجل رفع التحدي في وجه المستخرب الفرنسي ـ تحوّل مع مرور الزمن إلى عقيدة ثابتة، ومذهب رسمي لحموية مالي.

على أن الإجماع في طاعة الخليفة الحموي حول هذه المسألة غير واردة، فالعديد من الأفراد والجماعات تؤمن بوفاة الشيخ حماه الله، وأنه لن يعود أبدا[70].

بقي أن نشير إلى أن هذه المسائل الأربعة تعتبر حساسة وغير مطروقة، إلا بصفة نادرة وفي مواقف صعبة، فهي مسائل مسكوتة عنها، ولا يخوض الحديث فيها إلا القلة من الباحثين، الذين يواجهون بدورهم صعوبة في استنطاق المسؤولين أثناء عملية المقابلات.

---

67 ـ برنامج لقاء الساحل، مع الشيخ محمد ولد شيخنا أحمد حماه الله، عند الدقيقة 11، منشورات موقع بلوار ميديا، بتاريخ 14/يوليو/2013. وتم الاستماع في 22/ يناير/2019. ورابط اللقاء: https://www.youtube.com/watch?v=A54upCEg_1g

68 ـ إخليهنا، ولد محمد الأمين، الطريقة الحموية .. ص 58.

69 ـ الجابري، د. محمد عابد، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية، ط11، 1440ه//2019م، ص 288.

70 ـ قابلت العديد من الحمويين ومن بينهم طلبة لنا في الجامعة لا يؤمنون بفكرة عودة الشيخ. (مقابلة مجموعة من طلبة الليسانس بجامعة باماكو، 22/يناير/2024.

وانتهى بنا الأمر إلى نتيجة ميدانية هامة مفادها، أن سكوت المريد عن هذه المسائل الحساسة ونحوها، بل والدفاع المستميت عنها، هي في حد ذاته طاعة أساسية في العقيدة الحموية.

من نتائج البحث

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج الرئيسة، يمكن تلخيصها فيما يأتي:

1 ـ جذور تاريخية وروحية واضحة للمريدية في مالي: أظهر البحث أن المريدية افي مالي نشأت في إطار تربوي صوفي أصيل، استمدت أسسها من القادرية والتجانية، وأنها في مرحلة النشوء كانت تركز على تهذيب النفس وتعليم القرآن والفقه، بعيدا عن المظاهر السلبية التي ارتبطت بها لاحقا.

2 ـ تحوّل العلاقة بين الشيخ والمريد من علاقة تربوية إلى علاقة تبعية اجتماعية: تبيّن أن العلاقة الروحية التقليدية تطورت في كثير من الزوايا إلى علاقة يغلب عليها: الطاعة المطلقة، التبعية التنظيمية، والخدمة المتواصلة على حساب التربية العلمية والأخلاقية التي كانت تشكل أساس المريدية في بداياتها.

3 ـ وجود ممارسات جديدة لا تتفق مع الوظائف الأصلية للطريقة الصوفية: رصدت الدراسة انتشار ممارسات مثل: التسوّل الديني، استغلال المريدين اقتصاديًا، الاعتماد على المريدين في جمع الموارد، وهي ممارسات بعيدة عن روح التصوف التربوي الذي يركز على تزكية النفس.

4 ـ تأثير الأعراف المحلية في تشكيل صورة المريدية: أظهرت النتائج أن الثقافة المحلية في مالي أثرت بوضوح على ممارسات المريدين؛ إذ اندمجت بعض العادات الشعبية مع الطقوس الصوفية، مما أدى إلى تداخل بين الديني والاجتماعي، وأحيانا إلى انحراف في المفاهيم.

5 ـ اختلاف كبير بين المريدية في مالي والمريدية في العالم العربي: يتضح أن المريدية في مالي أكثر ارتباطا بالسياق القبلي والاجتماعي، بينما يظل التصوف في العالم العربي غالبا أقرب إلى الإطار العلمي والمعرفي.

6 ـ محدودية الدور الرقابي الرسمي والديني: لوحظ أن غياب الرقابة المؤسسية على الزوايا، وضعف تعليم المريدين، أدى إلى استمرار ظواهر: الجهل الديني، الاستغلال، غياب المناهج التربوية الواضحة.

7 ـ حاجة المريدين إلى تأهيل علمي وتربوي منظم: خلص البحث إلى وجود فجوة كبيرة بين ما ينبغي أن يكون عليه تكوين المريد، وبين الواقع العملي، حيث تغيب البرامج التعليمية المنظمة لصالح العمل والخدمة.

من توصيات البحث

استنادا إلى النتائج السابقة، يقترح البحث مجموعة من التوصيات العملية، كما يلي:

1 ـ إعادة التأكيد على الدور التربوي للطرق الصوفية: ينبغي للطرق الصوفية المنحرفة في مالي أن تعود إلى وظائفها الأصلية: تعليم القرآن، نشر الأخلاق الحميدة، بناء الشخصية الروحية، وأن تقلل من الممارسات التي لا تخدم المقاصد التربوية.

2 ـ تنظيم العلاقة بين الشيخ والمريد: يوصى بوضع إطار تربوي واضح يحدد: حقوق الشيخ، حقوق المريد، حدود الطاعة، بما يحفظ كرامة المريد ويضمن أصالة التربية الصوفية.

3 ـ الحد من ظاهرة التسوّل الديني من خلال: وضع ضوابط شرعية لهذا النوع من الممارسات، البحث عن مصادر تمويل مستقرة للزوايا، وتطوير مشروعات اقتصادية منتجة بدل الاعتماد على تسوّل المريدين.

4 ـ تعزيز التعليم الشرعي للمريدين: يقترح البحث إنشاء: مدارس قرآنية حديثة داخل الزوايا، حلقات علمية مواكبة للعصر، وبرامج تدريبية للمريدين.

5 ـ تفعيل دور المؤسسات الرسمية في الرقابة والتقويم: على الجهات الدينية والتعليمية في مالي: متابعة عمل الزوايا، التقليل من الممارسات المخالفة للشرع، ودعم الطرق الصوفية المعتدلة

6 ـ دعم البحث العلمي حول التصوف في مالي: من خلال: تشجيع الدراسات الميدانية، توثيق تاريخ الطرق الصوفية، وفتح برامج بحثية في الجامعات.

7 ـ تشجيع الحوار داخل المجتمع الصوفي: للحدّ من التضارب بين الطرق، وإيجاد رؤية مشتركة لإصلاح واقع المريدية بما يحفظ روح التصوف وينقيه من الشوائب.

خاتمة

بحثت هذه الدراسة عن طاعة المريد للشيخ في مالي. والطاعة نتيجة حتمية لمجموعة آداب وسلوك وضوابط أخلاقية وضعها علماء الصوفية من أجل تحقيق الطاعة للشيخ.

والمريد هو أدنى رتبة من رتب الصوفية في مالي، فهو متعلم مبتدئ على شيخ طريقة يرشده إلى الله تعالى. ويمكن أن نتساءل في هذا المستوى هل من احتياج إلى شيخ؟

وللإجابة على السؤال برزت نظريتين:

1 ـ نظرية لا ترى ضرورة اتخاذ شيخ، لأن الدين واضح، والرسول صلى الله عليه وسلم تركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

2 ـ أما النظرية الثانية، ويمثلها علماء التصوف، فترى ضرورة اتخاذ شيخ، وإلى هذا الاتجاه ذهب ابن خلدون، وبيّن الفرق بين نوعين من الشيوخ: شيخ الطريقة، وشيخ الشريعة، وأن الاحتياج إلى الاثنين ضروري، كما أن كلاهما على حق.

وتطرق البحث إلى تاريخية المريدية في مالي، والذي يرجع إلى دولة المرابطين خلال القرن 4هـ/10م، وهي دولة قامت على أكتاف تلاميذ ومريدي الرباط والزوايا.

وخلال القرن 13هـ/19م، ظهرت القادرية البكائية في تمبكتو على يد الشيخ سيدي المختار أحمد الكنتي، وتم تأسيس الزوايا مع ما يتبعها من مريدين.

ثم تطورت ظاهرة المريدية في عهد دولة ماسينا الفولانية الإسلامية إبان القرن 13هـ/19م، وعرفت مالي في عهدها التسول لدى مريدي الكتاتيب والمدارس القرآنية مدعوما من قبل الدولة الإسلامية[71].

71 ـ يحلم المدعو اليوم "أحمد كوفة باري" ـ أحد سليلي المنطقة المعنية وزعيم ما يعرف اليوم بـ"كتيبة ماسينا" الإرهابية- إلى إحياء هذه الدولة الإسلامية.

والمريد في مالي أصناف: مريد قدم بشخصه إلى الشيخ، ومريد حمله وليه إلى الشيخ، ومريد ساقته ظروف اجتماعية قاسية إلى الشيخ، مثل الطفل اللقيط.

أما إعاشة المريد، فكانت في البداية تتم عبر اتفاق الشيخ وأولياء المريدين على تحديد يوم معين، يحمل فيه الإعاشة إلى الشيخ من قبل الأولياء، كل حسب ما تيسّر له من الطعام والمال.

وفي مرحلة ثانية، تم تقنين التسول لأول مرة في تاريخ مالي لسد فراغ الإعاشة في الزوايا والمدارس القرآنية هذا من جهة. ولتدريب المريد على الزهد والحياة القاسية من جهة أخرى.

ثم في مرحلة أخرى ثالثة، يتم اتخاذ حقول ومزارع، واقتناء حيوانات ونحوها، حيث يشرف المريد على فلاحة الأرض وتربية البقر والأغنام التي تشكل مصدر عيش كريم للمريد وشيخه.

والطاعة في الفكر الصوفي أمر مكتسب بخطوات ومراحل يمر بها المريد، من أهمها: التوبة، أخذ العهد من الشيخ، وتلبيس المريد الخرقة أو الشعار، وأخيرا التلقين.

وفيما يخص طاعة المريد للشيخ في مالي، فقد اعتمدنا التقسيم الثنائي التالي: طاعة المريد للشيخ في المعاملات، وطاعة المريد للشيخ في العبادات.

ركزنا في الأولى على نقطتين رئيسيتين

أ ـ الطاعة في المنزل، جمعنا فيه مجموعة من آداب المعاملات المنزلية بين الشيخ والمريد من جهة، وبين المريد وأهل الشيخ ومقربيه.

ب ـ الطاعة في المجلس العلمي للشيخ، حيث تم الجمع فيه لآداب متعلقة بالمدرسة والمجلس الكتابي ونحوهما.

أما في الثانية، فقد ركزنا على مسائل تعبدية حساسة للطريقة الحموية بمالي[72]، من قبيل:

1 ـ مجانبة الحموية سائر التجانيين في عدد تلاوة "جوهرة الكمال" بعدد 11 مرة فقط. حيث رأوا أنفسهم في ذلك مصلحين ومجددين للطريقة. وارتأينا أن الطاعة للشيخ في هذه النقطة مطلقة.

2 ـ مسألة القصر في الصلاة، وبعد استقصاء ميداني، اتضح لنا حول هذا الموضوع أن حموية مالي لا تعمل بهذه المسألة إلا نادرا جدا في مناطق معينة من البلاد. والطاعة في عدم الإتيان بذلك شبه إجماع، وذلك على الرغم من مداومة مؤسس الطريقة شيخنا حماه الله على القصر إلى أن تم نفيه إلى فرنسا 1360هـ/1941م. هذا من جهة.

من جهة أخرى، اتضح لنا أن بعض الحمويين في دول أخرى يقصّرون في الصلاة انطلاقا من مبدإ طاعة الشيخ[73].

---

72 ـ تجدر الإشارة هنا إلى جماعة "أنصار الدين" للزعيم الشيخ الشريف عثمان مدان حيدرا (رئيس المجلس الإسلامي الأعلى حاليا)، حيث يتم تخصيص هذا الأخير من قبل مريديه بطاعة مطلقة لكل ما يتفوّه به حول الإسلام، ولو كان غريبا، مثل قوله إن المبايعة في الأمور الستة المذكورة في آخر سورة الممتحنة شرط للدخول في الإسلام، حيث لا يغني التقوّل بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) فحسب. وقد أثار هذا الموقف منه جدلا واسعا في الأوساط الدعوية ليس في مالي فقط، وإنما في الدول الإقليمية برمتها، ونال الموقف طاعة بالإجماع من كافة المريدين، الذين يعدون بالملايين حول العالم.

73 **ـ إخليهنا، ولد محمد الأمين، الطريقة الحموية، ص 58.**

3 ـ مسألة ترك إقامة صلاة الجمعة، فهي مسألة حساسة لكنها واقعية في نيورو مقر الخلافة الحموية في مالي. ومن حسن الحظ أن الشيخ الخليفة لا يفرض طاعة على مريد حول الموضوع. لذا، فإن المريدين في كل مكان يؤدون صلاة الجمعة، خلافا للمذهب الرسمي للحموية.

4 ـ مسألة عودة الشيخ حماه الله، وهو المذهب الرسمي للحموية، وإن كان العديد من الأفراد والجماعات الحموية لا تعمل بها.

ويظهر من خلال هذا البحث أن الطاعة تكون مطلقة كلما تعلق الأمر بالمعاملات البينية للشيخ والمريد، في حين لاحظنا أن الاجتهاد قد دخل على الطاعة في مجال العبادات في أكثر من مسألة. وهذا يؤكد قول شيوخ الصوفية ـ وفي مقدمتهم الشيخ أحمد التيجاني (رحمه الله) ـ عندما طالبوا مريديهم بضرب أقوالهم عرض الحائط كلما خالفت أحكام الشريعة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، تدلل هذه المواقف من الطاعة على رحابة صدر الشيخ، لتقبله اجتهادات المريد في الطاعة كلما تعلق الأمر بمسائل العبادات، وقد يؤدي مثل تلك الاجتهادات إلى تفرع المريد عن طريقة الشيخ، وبالتالي إحداث طريقة جديدة ينسب إليه، والأمثلة في المجال عديدة، مثل "الحموية" في مالي، و"النياسية" في السنغال[74]. وفي هذه الحالة، نتساءل كيف يمكن أن نتصور العلاقة بين الطريقة الأصل والطريقة الفرع؟

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم

2 ـ باري، عثمان برايما، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين، القاهرة مصر، ط1، 1421هـ/2000م.

3 ـ ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 1441ه/ 2020.

4 ـ الجابري، د. محمد عابد، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية، ط11، 1440ه//2019م،

5 ـ جاكايتي محمد، الفلانيّون وإسهامهم في الحضارة الإسلاميّة بمالي خلال القرنين (12-13هـ/18-19)، بحث لنيل شهادة الدّكتوراه في اختصاص الحضارة الإسلاميّة، المعهد الأعلى لأصول الدّين بجامعة الزّيتونة، تونس، 1428ه/ 2006-2007م.

6 ـ الجيلاني، عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1417هـ/ 1996.

7 ـ حرازم علي المغربي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1438هـ/ 2017،

8 ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، 1417هـ/ 1996.

9 ـ زروق، أحمد، قواعد التصوف، تحقيق عثمان الحويمدي، حسن السماحي سويدان، دار وحي القلم، بيروت لبنان، ط1، 1425هـ/2004.

74 ـ الحموية، نسبة إلى الشيخ أحمد حماه الله، تفرعت طريقته عن التيجانية الأصل. والنياسية نسبة إلى إبراهيم عبد الله نياس الكولخي (ت1395هـ/ 1975م)، وتفرعت طريقته أيضا عن التيجانية.

10 ـ السلمي، أبو عبد الرحمن، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1419هـ/1998م.
11 ـ السهروردي، شهاب الدين عمر، ملحق إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت،1403ه/ 1982م.
12 ـ السهروردي، شهاب الدين عمر، عوارف المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1420هـ/ 1999م.
13 ـ الشعراني، عبد الوهاب، الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، تحقيق حسن محمد الشرقاوي، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، 1412ه/ 1991م.
14 ـ القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة مصر، 1395ه/ 1974.
15 ـ الهيتمي، أحمد شهاب الدين بن حجر، الفتاوي الحديثية، دار المعرفة، بيروت لبنان،1430هـ/ 2009.

المصادر الأجنبية

1 -Traore, Alioune, l'islam face à la colonisation française en Afrique d'ouest Cheick Hamahoullah, homme de foi et résistant, Le Harmattan, 1 Avril, 2015

المقالات

1 ـ إخليهنا، ولد محمد الأمين، الطريقة الحموية في الساحل الإفريقي، جزء من الحالة الصوفية بموريتانيا ومالي، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة قطر، ط1، ديسمبر 1443هـ/2021.
2 ـ جاخاتي، د. قاسم، الأبعاد الروحية والسلوكية لعلاقة الشيخ بالمريد في الفكر الصوفي، مجلة آفاق علمية، دورية نصف سنوية محكمة، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، عدد10، جوان، 1438هـ/2015.
3 ـ خديم امباكي، الطرق الصوفية في السنغال: الأسس والتطور والعلاقات، الطرق الصوفية بغرب إفريقيا، السياقات الاجتماعية والأدوار السياسية، مجموعة من الباحثين، تحرير سيدي محمد أحمد ولد الأمير، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، قطر، ط1، 1443هـ/2021م.
4 ـ ديالو، أحمدو تال، الدعاء عند الصوفية في مالي، ندوة "الدعاء في الأديان السماوية"، خلال يومي 26 ـ 27 أفريل 2023، جامعة الزيتونة، المعهد العالي للحضارة الإسلامية، تونس، 1444ه/2023م. بحث بصدد النشر.
5 ـ الزبون، أحمد محمد عقلة، آداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل من المؤلفات الصوفية في الفترة الزمنية الممتدة من القرن 3هـ إلى 7هـ، دراسة تحليلية ونقدية في ضوء الكتاب والسنة، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، الأردن، العدد3، المجلد 12، 1437هـ/2016.
6 ـ كروما، الشيخ إسماعيل إبراهيم، جهود العلماء الأفارقة في خدمة الثوابت الدينية المشتركة، المغرب، مجلة العلماء الأفارقة، عدد5، السنة الثالثة،1443ه/ 2022م.

7 ـ محمد نعايم والسعدية أوتبعزيت، الشيخ المختار الكنتي، حياته وتصوفه، مجلة دعوة الحق، الرباط، المغرب، العدد415، ربيع الثاني، 1437هـ/2016.

المقابلات

1 أ مقابلة الدكتور سيدي محمد الثاني ميغا، شيخ الحموية في بوركينا فاسو في المدينة المنورة بتاريخ 2020/01/18.
2 ـ مقابلة مع الشيخ الداعية آدم كويتا، إمام مسجد كبير بالعاصمة باماكو، بتاريخ 18/يناير/2024، باماكو
3 ـ مقابلة مع الشيخ غوث فومبا، متخصص في التصوف بمالي، باماكو، بتاريخ 2024/01/22
4 ـ مقابلة مع الخليفة محمد تاناتاوو، طالب جامعي، وخليفة زاوية بمدينة جنى التاريخية، في 23/يناير/2024، وفي 29/يناير/2024
5 ـ مقابلة الشيخ عمر كوياتي، زعيم صوفي حموي بالعاصمة باماكو، بتاريخ 2024/01/15.
6 ـ مقابلة مجموعة من طلبة الليسانس بجامعة باماكو، 22/يناير/2024.
7 ـ مقابلة مع مامادو كولييالي، عون اجتماعي، باماكو، بتاريخ 26/يناير/2024.
9 ـ مقابلة مع الشيخ إدريس باغايوغو، باحث ومتخصص في التصوف الإسلامي بمالي، باماكو، بتاريخ 20/مارس/2024
10 ـ مقابلة الشيخ محمد المكي باه، زعيم صوفي، ومؤسس زاوية النور التيجانية، باماكو، بتاريخ 21/مارس/2024.

المكالمات الهاتفية

1 ـ مكالمة هاتفية مع الدكتور الشيخ سيدي محمد الثاني ميغا، خليفة الحموية في بوركينا فاسو، بتاريخ 24/يناير/2024).
2 ـ مكالمة هاتفية مع الشيخ عثمان نانتومى (بمدينة كوتيالا جنوبا)، شيخ مدارس قرآنية، ورئيس مجلس قراءة ورش بمالي، بتاريخ 05/مارس/2024.

المواقع الالكترونية

1ـ سعيد، غانمي عمر، الطريقة التيجانية ودورها في نشر الإسلام بغرب إفريقيا، موقع المدى، بعنوان (https://www.google.com/search?client=firefox-b-d&q=%D9%85%D9%88%D9%82%D8%B9+%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AF%D9%89) منشور بتاريخ 04/مارس/2011، تم التصفح في 28/يناير/2023.
2 ـ برنامج لقاء الساحل، مع الشيخ محمد ولد شيخنا أحمد حماه الله، عند الدقيقة11، منشورات موقع بلوار ميديا، بتاريخ 14/يوليو/2013. وتم الاستماع في 22/ يناير/2019. ورابط اللقاء: https://www.youtube.com/watch?v=A54upCEg_1g

3ـ رابط لمعنى كلمة مريد لدى الصوفية:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B1%D9%8A%D8%AF

4 ـ رابط تسول المريد في شوارع مالي: Rapport d'enquête nationale dur le travail des enfants au Mali

5 ـ لمزيد المعلومات من التسول والعقوبات المترتبة عليه، يمكن العودة إلى الرابط التالي: https://www.law-house.net/%D8%B9%D9%82%D9%88%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B3%D9%88%D9%84-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D9%86%D9%88%D9%86/